أدب الشتاء

للأستاذ محمد سيد كيلاني

حتى إذا ما أثبل الشتاء جاءتك منه غمة غماء
« ابن وكيع التنيسي »

يعانى الناس فى فصل الشتاء كثيرا من الأهوال والشدائد . وقد كان شعور القدماء بهذه الشدائد أعظم وبخاصة الفقراء منهم . وسكان الأرياف ما زالوا يلاقون من بلاء الشتاء ما كان يلاقيه أسلافهم من قبل . لذلك اعتبروه عدوا لدودا وخصما عنيفا . وشبهوه بجيش جرار أغار عليهم بعساكره مشاة وفرسانا . فعواصف وأنواء ، ورياح وزوابع ، وأمطار وسيول ، وغيوم بعضها فوق بعض ، وبرق ورعد ، وبرد وثلج . قال القاضى التنوخى :

أما ترى البرد قد وافت عساكره
وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا
والأرض تحت ضريب الثلج تحسبها
قد ألبست حبكا أو غشيت ورقا

* * *

وقد تبارى الشعراء والكتاب فى وصف مظاهر الطبيعة فى هذا الفصل واخترعوا المعانى الجيلة وأتوا بالصور الرائعة ، ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا قالوا فيها شعرا ونثرا . قال أبو تمام وهو بخراسان :

ما للشتاء ولا للصيف من مثل
يرضى به السمع إلا الجود والبخل
أما ترى الأرض غضبى والحصى قلقا
والأفق بالحرجف النكباء يقتتل
من يزعم الصيف لم تذهب بشاشته
فغير ذلك أمسى يزعم الجبل
غدا له مغفر فى رأسه يقق
لا تهتك البيض فوديه ولا الأسل

فالشاعر هنا قد شخص الطبيعة وأضفى عليها ثوبا من الحياة والنشاط ؛ فالأرض هائجة ساخطة ، والحصى لا يستقر على حال فهو دائم الاضطراب ، والأفق يتضارب برياح عاتية ، والجبال قد اكتست بطبقات كثيفة من الثلوج . ثم حدثنا أبو تمام عن أثر البرد فى الضلوع والأحشاء والكلى . وكان قد عانى من أهواله بلاء كبيرا . قال :

من كان يجهل منه جد سورته   فى القريتين وأمر الحق مكتهل
فما الضلوع ولا الأحشاء جاهلة   ولا الكلى أنه القدامة البطل

وقد بلغ شعور أبى تمام بشدة البرد أنه بكى على ذهاب الصيف بكاء مرا . قال :

عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما
يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل

وقد كانت رحلته إلى خراسان دافعا له على وصف مظاهر الطبيعة القاسية فى هذا الفصل . وقد شبه الشتاء بحيوان قوى مخيف وادعى أن ممدوحه ضرب هـذا الحيوان ضربة فلت من غربه وكسرت من حدته ، وجعلته ذلولا سلس القياد ، قال :

فضربت الشتاء فى أخدعيه   ضربة غادرته قودا ركوبا

* * *

ووجد الشعراء والكتاب فى الأمطار والسيول مجالا للقول ، وميدانا فيه يتسابقون ويأتون بكل معنى طريف . وقد صور لنا ابن الرومى ما فعلته به الأمطار وهو سائر فى الطريق فقال :

لقيت من البر التباريح بعدما
لقيت من البحر ابيضاض الذوائب
سقيت على رى به ألف مرة
شرقت لبغضيها بحب المجادب
إلى الله أشكو سخف دهرى فإنه
يعابثنى ـ مذ كنت ـ غير مطايب

مكر الله « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون »

هذه تحيتى إليك يا مصر العزيزة فتقبلها ، وهذه آمالنا فيك فحققها ، وكلمة مرة فى الأخير فتحملها ، وهذه معذرتى إليك فاقبلها ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أبو الحسن على الحسنى الندوى
(نزيل مصر) القاهرة

أبى أن يغيث الأرض حتى إذا ارتمت

برحلى أناها بالغيوث السواكب

سقى الأرض من أحلى فأضحت مزلة

تمايل صاحبها تمايل مشارب

واستمر الشاعر فى هذه القصيدة فصور لنا حاله وقد بللته الأمطار حتى أصبح كالغريق . وذكر لنا أنه التجأ إلى خان ليستريح من بلاء هذا المطر الغزير وليظفر بالدفء . ولكنه لم يجد بغيته فى هذا الخان لأن الأمطار قد أتلفته وجعلته عرضة للسقوط . فقضى به ليلة فى خوف وجوع ، إذ كان سقف الخان قد أثقلته مياه الأمطار فأضحى مهيئا للرعب بصريره الذى يشبه صرير الجنادب . ولما انقطعت الأمطار هبت ريح صرصر عاتية حثت التراب والحصى فى الوجوه . وهكذا أصبحت الحياة كما صورها ابن الرومى جحيما لا يطاق . وفى هذه القصيدة من الألم والتبرم والسخط ما لا يخفى . فالشاعر يشكو مر الشكوى من دهره الذى يعيث به ويسومه عذاب الهون

وقد تبارى أدباء الشام فى وصف ما أحدثته الأمطار والسيول ببلادهم ، وما سببته من الخسائر والتلف فى الزرع والضرع ، وما فعلته فى الطرق من التخريب والتدمير ، وما ترتب على ذلك من سوء الأحوال الاقتصادية والصحية ، وما تعرض له الناس من الهلاك . فانظر إلى هذه الصورة المؤثرة وهى من رسالة لأحد الكتاب : « .. أما الساكن فأهلها ساكنين ، وأفواههم من الحزن مطبقة فما تفتحها الساكين . قد انتبذ كل منهم زاوية من داره ، وتداخل بعضه فى بعض لتضمه بقعة على مقداره ، هربا من توقيع أكف الوكف ، وخوفا من وكوع الجدار وسجود السقف »

وقال ابن المعتز :

رويدا فما تزداد يارب من حيا وأنت على ما فى النفوس شهيد

سقوف لبيتى صرن أرضا أدوسها وحيطان بيتى ركع وسجود

فالناس فى الشتاء كانوا عرضة للهلاك . فربما فاجأتهم الأمطار الغزيرة فى أثناء سفرهم وقطعت عليهم الطرق وتعذر على القوافل السير فيتلفهم الجوع والبرد ويموت أكثرهم من جراء هذا . والمقيمون فى المدن لا يفلتون من شر الأمطار . فربما خرت عليهم سقوف المنازل فجأة وهم نائمون فيقضى عليهم . وقد يحبسون فى دورهم أياما حتى تجف الطرق وتصلح ، فلا عجب إذا ساءت أحوال المعيشة إلى حد كبير . وقد ظهر أثر هذا فى الأدب بشكل واضح . فرأينا أدبا لهجته وسداه السخط والتبرم بالحياة . أما المتصوفة فرأوا فى هذه الأمطار والسيول عقوبة إلهية امتحن الله بها الناس لمعصيانهم وابتعادهم عن الصراط المستقيم . وفى ذلك يقول ابن الوردى :

إن المصائب بالأقدار كائنة

لكن على حسب الأقدار تحتسب

عجبت منى ومن غيرى تشوقنا

إلى ازدياد حياة كلها تعب

وإن دهمنا بسيل أو بنوع أذى

كالنار والثلج قلنا ما هو السبب

أقسمت بالله لولا حلم خالقنا

لكان من عثر ما نأتى به العطب

ودهرنا أى دهر فى تقلبه

قد هان فيه التقى والعلم والأدب

فالمتصوفة كانوا يتخذون من هذه الأمطار الغزيرة التى يبتلى بها الناس فى هذا الفصل وسيلة للوعظ والإرشاد ، والنصح والتحذير

* * *

ووصفوا الغيوم وما تحدثه فى الجو حين تحجب الشمس والقمر والنجوم . وأتوا فى ذلك بكثير من الصور والمعانى الجميلة . قال أحد الشعراء :

لا بوحش الله من شئ يقال له شمس النهار فما تبدو ولم تغد

أما النجوم فشئ كان فى زمن مضى حميدا فقد ولى ولم يعد

وهذا من المبالغات المحببة . فالشاعر هنا يتحدث عن شئ يقال له الشمس وعن شئ يقال له النجوم . وذلك لأن الناس اطول عهدهم بالغيوم أنهم لا يعرفون من أمر هذه الكواكب قليلا أو كثيرا

وهذا شاعر يصور النجوم حين تظهر من خلال الغيوم فيقول :

ولقد ذكرتك والنجوم كأنها در على أرض من الفيروزج

يلمن من خلال السحاب كأنها ... شرر تطاير من يبيس العرفج
والأفق أحلك من خواطر كاسب ... بالشعر يستجدي اللئام ويرتجي

لقد تنافس الشعراء والكتاب في اختراع الأوصاف والتشبيهات، وصوروا هذه الظاهرة الطبيعية تصويرا لا تنقصه ريشة الفنان الموهوب. انظر إلى هذا الشاعر حين يقول:

والبدر يستر بالغيوم وينجلي ... كتنفس الحسناء في مرآتها

* * *

وكانوا ينتهزون فرصة تلبد الجو بالغيوم ويجعلون من هذا وقتاً مناسباً للهو والعربدة، فيعقدون مجالس الخمر والغناء. وتلك عادة عرفت عند العرب منذ العصر الجاهلي. قال طرفة

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنة تحت الطراف المعمد

وقال الصنوبري:

الجو بين مضمخ ومضرج ... والأرض بين مزخرف ومدبج
والثلج يهطل كالنثار فقم بنا ... نلهو بربة كرمة لم تمزج
ضحك البهار وبان حسن شقائق ... وزهت غصون الورد بين بنفسج
فكأن يومك من غلالة فضة ... والنور من ذهب على فيروزج

والشواهد على ذلك كثيرة. ومنها نرى أنهم كانوا في أوقات الغيوم والأمطار ينشطون لتعاطي الشراب وسماع الغناء. ولا يخفى أنه عقب سقوط الأمطار تصفو الطبيعة صفاء تاما وترق إلى حد بعيد، فتستولي على الإنسان مشاعر خاصة لما يرى من مظاهر الجمال الطبيعي في الكون ويمتزج بالطبيعة امتزاجا كليا. وكأنه بتعاطي الخمر وسماع الغناء يريد أن يشارك الكون في الصفاء

* * *

ووصفوا البرد وشبهوه بالدر. قال ابن حمديس الصقلي

نثر الجو على الأرض برد ... أي در لنحور لو جمد
لؤلؤ أصدافه السحب التي ... أنجز البارق منها ما وعد
منحته عاريا من نكد ... واكتساب الدر بالغوص نكد
ذوبته من سماء أدمع ... فوق أرض تتلقاه نجد
فجرت منه سيول حولنا ... كثعابين عجال تطرد

وهذه القصيدة الطويلة تعتبر من عيون شعر ابن حمديس في الوصف. وذلك لما حوته من الصور الرائعة والأوصاف الجميلة والمعاني اللطيفة. فقد وقف الشاعر أمام البرد وأطال الوقوف. فالبرد لو جمد لصار كالدر الجميل الذي تتزين به نحور الحسان. وهو كاللؤلؤ. وإذا استقر على الأرض وذاب تكونت منه سيول ملتوية كالثعابين التي تزحف مسرعة هربا ممن يطاردها

وقد تناول ابن خفاجة الأندلسي البرد في شعره فقال:

يارب قطر جامد حلي به ... نحر الثرى برد تحدر صائب
حصب الأباطح منه ماء جامد ... فشى البلاد به عذاب ذائب
فالأرض تضحك عن قلائد أنجم ... نثرت بها والجو جهم قاطب
فكأنما زنت البسيطة تحته ... فأكب يرجمها الغمام الحاصب

لم يقف ابن خفاجة أمام البرد طويلا كما وقف ابن حمديس. فهو عنده حلية لنحر الثرى أو قلائد من النجوم. ثم نظر إلى ما أصاب الناس من جراء سقوط هذا البرد. ثم أتى بصورة دينية فشبه الأرض بامرأة ارتكبت فاحشة فما كان من الغمام إلا أن أقام عليها حد الرجم، وأرسل عليها حاصبا من البرد. فالفرق واضح بين نظرة ابن حمديس للبرد ونظرة ابن خفاجة. فابن حمديس أعجب بمنظر البرد فوقف يصور لنا ببيانه صورة شعرية جميلة. أما ابن خفاجة فاعتبر البرد نقمة وعقابا وقمته النيوم على الأرض

* * *

ووصفوا تساقط الثلوج على الأشجار والزروع، وجاءوا في ذلك بصور لطيفة جميلة. ومثال ذلك قول أحدهم:

نظرت إلى أشجار جلق فوقها ... ثلوج أراها بالبروق تلوح
فشبهتها قضبان فضة اكتست ... وقابلها عند الغداة صبوح
ومن تحتها الأوراق خضر كأنها ... زمردة تغدو بنا وتروح
ومن بينها النارنج كالذهب الذي ... هواه به كل النفوس تبوح

فانظر إلى هذا المصور الماهر الذي أمسك ريشته وراح يضفي الألوان المناسبة على كل جزء من أجزاء تلك الصورة. فالنارنج كالذهب، والأوراق الخضر كالزمرد، والأغصان كقضبان من الفضة

* * *

ووصفوا الرعد والبرق. فتراهم أحيانا يشبهون الرعد بامرأة ثاكلة نادبة. وأحيانا يشبهونه بالأسد حين يزأر مهددا بالويل والثبور. ويشبهون وميض البرق بالضحك، أو بالسيوف، أو